إن التربية لا يمكن أن تتم في فراغ وبالتالي فهي تعيش في مجتمع، ذلك لأنها أداة المجتمع في تشكيل الأفراد الذين لا يمكن لهم أن ينمو في عزلة، فهي عملية اجتماعية وتختلف من مجتمع لآخر حسب طبيعة المجتمع والقوى الثقافية المؤثرة فيه، بالإضافة إلى القيم الروحية والفلسفية التي يعيش على أساسها، ويمكن القول أن التربية تتأثر بالمجتمع وبتصوره أو بإطار حياته وإن التربية تقوم على مجموعة من المسلمات والفرضيات التي تؤثر عليها وتتأثر بها، كما تتسم التربية بأنها عملية إنسانية تختص بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات لما ميزه الله بالعقل والذكاء والقدرة على إدراك العلاقات واستخلاص النتائج وتأويليها، وأن التربية تقوم على علم حقيقي وإنها تستند إلى عديد من الأصول أجمعت عليها معظم البحوث والدراسات التربوية، وتهدف إلى تكوين نظام فكري يوجه العمل التربوي في مجالاتها التطبيقية والعملية المختلفة، كما أنه يساعد على فهم طبيعة العلاقة بين التربية وغيرها من المجالات الأخرى [1]

أولا- تعريف الأسس العامة للتربية:

تعرف الأسس أو الأصول العامة للتربية على أنها القواعد والأسس والمبادئ والنظريات والمسلمات والافتراضات والحقائق التي يقوم عليها أي نظام تربوي، أو هي الجذور والمنابع التي تنبثق منها الأفكار والنظريات والممارسات التربوية، كما نعني بأصول التربية القواعد والأسس التي تحكم عمل المؤسسات التربوية المختلفة وما تقدمه من خبرات تربوية من إقامة منهج تربوي مناسب أو تنظيم للسلم التعليم أو اقتراح إدارة تربوية سليمة أو تخطيط تربوي ناجح أو طريقة تدريسية ذات كفاءة عالية أو وضع نظام جديد للتقويم[2]

ثانيا- أهمية دراسة الأسس العامة للتربية:

إن قوة التعليم التي هي قوة المجتمع وقوة مستقبلة لا تأتي من تلقاء نفسها ولا تفرض عليه بقوانين خارجة عن طبيعته الاجتماعية وعن ظروف الزمان والمكان التي يعيش فيها هذا التعليم، وإنما هي في فهم الأصول والأسس التي يقوم عليها والتي بها يستطيع أن يكون قوة بالفعل في عمليات التغير، والأصول والأسس في التربية هي العمق الذي يكسب التربية صفتها كمهنة ووظيفتها كقوة اجتماعية ويؤثر على الممارسات التعليمية وعلى عمل المؤسسات التربوية وتعمل على الكشف عن هذه المسلمات والفرضيات والتطورات من التطور الفلسفي الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي من أجل الوصول إلى نظام فكري متسق يوجه العمل التربوي، وإن دراسة أصول التربية لا تهتم بالبحث وراء الأهداف والغايات النهائية للتربية أو طبيعة هذه الأهداف أو بنواحي الفهم والتفسير والتحليل الخاص بها وحسب، وإنما تعني في الأساس وقبل كل شيء بالنتائج التي تبث صحتها في مجال التطبيق التربوي أو التي لها آثار ايجابية علي التطبيق التربوي أو التي يعتقد أنها كذلك وأن دراسة أصول التربية هي دراسة نظرية للأسس المختلفة التي يقوم عليها التطبيق في مجال التربية والهدف من دراستها هو فهم طبيعة العملية التربوية ودراسة مختلف جوانبها وأبعادها وما

[1]- عامر طارق عبد الرؤوف: أصول التربية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، القاهرة، 2008، ص26.

[2]- نفس المرجع: ص27.

يمكن أن تؤدي إليه هذه الدراسة من تطويرها، وإن الحديث عن أصول التربية لن يكون بعيدا عن أصولها الثقافية أو الاجتماعية أو النفسية أو الاقتصادية أو التاريخية فكل هذه الأصول تجمعها وحدة واحدة هي البناء الاجتماعي المتكامل داخل المجتمع الواحد، أي أن التربية تستند إلى العديد من الأصول وتجمع دراسات تربوية على أن أصول وأسس التربية تتلخص فيما يلي: الأصول الثقافية والاجتماعية للتربية والأصول الاقتصادية والأصول التاريخية والأصول السياسية والأصول الإدارية والأصول الفلسفية والأصول النفسية والأصول الفسيولوجية والبيولوجية.[1]

ثالثا– الأسس التاريخية للتربية:

تلعب الأسس التاريخية دورا مهما في توجيه التعليم والتعمق في مفاهيمه ومشكلاته، حيث أن هذه الأسس تتيح لنا دراسة جذور مشكلات التعليم واتجاهاته ووسائل مواجهتها في الماضي ومدى ملائمة هذه الوسائل لطبيعة المرحلة التي يواجه فيها التعليم مسئولياته، بمعنى أنه يجب العودة إلى الماضي وفحصه تحقيقاً لمستقبل أفضل حركة للقوى الاجتماعية والاقتصادية وما بينهما من تناقض أو التقاء[2] وبالنسبة للأصول التاريخية فإنه لا يمكن فهم الأوضاع التربوية المختلفة بدون الرجوع إلى المصادر التاريخية المختلفة بالنسبة لهذه الأوضاع، والحقيقة أن النظريات التربوية في جوهرها بناء من التاريخ تساهم فيه الأجيال المتعاقبة، واجتهاد كل جيل في محاولة لأن يصل إلى أفضل صياغة ممكنة لهذه النظرية وذلك على طول تعاقب التاريخ بحيث تؤدى هذه المحاولة في النهاية إلى أكبر حد من الاستفادة الممكنة[3]

فالتاريخ يسجل الجهود الفكرية للإنسان في محاولاته تفسير الحياة البشرية وفهم صلتها بالوجود، وهو علم ضروري ومهم للعلوم الإنسانية، ووجود البعد التاريخي يساعد العملية التربوية على فهم ما ورثه من الماضي وما أعدته للحاضر وكيف تخطط للانطلاق إلى المستقبل، وأيضا يساعد على فهم المشكلات التي مرت على البشرية في مراحل تطورها، والابتعاد عما هو غير صالح لتجنبه والبحث عما هو مفيد، وكذلك الإطلاع على المفاهيم التربوية التي اتبعها الإنسان قديما وكيف تطورت، وإن التربية في علاقتها مع التاريخ تكوّن ما يسمى بتاريخ التربية الذي يدرس حركة المجتمعات البشرية وتفاعلاتها وتأثيرها على التربية[4]

وإن من بين أهم أهداف التربية هو تمكين الفرد من حسن التكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه، وذلك من خلال القيام بنقل وإكساب الخصائص والسمات الثقافية والنظم الاجتماعية الموجودة داخل المجتمع إلى هذا الفرد حتى يتحقق له التفاعل الأمثل مع بقية الأفراد الذين يشاركونه هذا المحيط الاجتماعي، ومن هنا تظهر أهمية الأسس التاريخية في بناء الفعل التربوي، حيث أن دراسة هذه الأسس هو الذي يمكّن من معرفة التراث الثقافي بكل عناصره من نظم وعادات وتقاليد وسمات وأنماط وسلوكات وغيراها، كما تساعد دراسة

---

[1]– نفس المرجع: ص30.

[2]– عيد الغني العمراني: أصول التربية، ط2، دار الكتاب الجامعي، صنعاء، 2012، ص42.

[3]– – عامر طارق عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص35.

[4]– كمال عبد الله والقلي عبد الله، محاضرات لطلبة المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، 2005، ص49

الأسس التاريخية على تحديد الأهداف التربوية باعتبار أن الهدف التربوي ليس إلاّ انعكاسا وتعبيرا صريحا عن طبيعة المجتمع الذي يوجد فيه، ولذلك نجد أن الهدف من التربية في المجتمعات العسكرية كالمجتمع الإسبرطي أو الروماني القديم كان إعداد المواطن القوي الشجاع القادر على القيام بأعمال الحرب، في حين نجد أن الهدف من التربية في أثينا هو الوصول إلى الكمال العقلي لأن مدينة أثينا كانت مدينة فضيلة وعلم ومعرفة ويحتل فيها العلماء والفلاسفة المراتب الأولى في التراتبيات الاجتماعية داخل الدولة.

ويمكن إجمالا ذكر أهم فوائد دراسة أسس أو الأصول التاريخية للتربية والتي تمكن من فهم حاضر التربية، وتحليل أصولها الممتدة من الماضي، والتنبؤ بالمستقبل:

– الوقوف على الأنماط التربوية التي تكونت خلال العصور التاريخية للمجتمع البشري.

– فهم النظم والمؤسسات التربوية التي ظهرت خلال العصور التاريخية، وما تضمنته من أفكار ونظريات تربوية، وما قامت عليه من فلسفات وسياسات أدت إلى تشكيل تلك النظم والمؤسسات التعليمية وأساليب الممارسة والتطبيق فيها.

– تتبع أفكار وآراء فلاسفة التربية عبر العصور والحضارات، ومدى إسهامها في تطوير أنماط التربية فكرا وتطبيقا، وذلك لما لها من أثر في التربية ونظرياتها.

– تحليل مكونات التعليم الحالي من زاوية العناصر التي ورثها عن الماضي، ومقابلة ذلك بالجديد مما استجد واستحدث، ومن زاوية رصد العوامل والقوى المختلفة التي أثرت وما زالت تؤثر وكيفية مواجهة المشكلات التربوية في الظروف المختلفة.

– فهم وتحليل مسارات التربية ومضامينها التي اتخذتها، وذلك من خلال تطور أهداف التربية ومناهجها وأساليبها

– البحث عن جذور مشكلات التعليم، وعوامل تكونها خلال العصور التاريخية بالتعرف على المفاهيم التي وجهت التربية، والتعرف على القوى السياسية والاقتصادية والثقافية التي أدت إلى تكون المشكلات التربوية، والبحث عن وسائل مواجهة تلك المشكلات في الماضي، ومدى ملاءمة تلك الوسائل لطبيعة الظروف تلك؟ وهل بالإمكان استخدام تلك الوسائل لمواجهة مشكلات حاضر التربية؟ وكذا البحث عن حلول في ضوء دراسة تاريخ وعوامله وقواه الاجتماعية والاقتصادية.

– التعرف على العوامل والقوى الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والظروف والاعتبارات التي وجهت المجتمع والتربية خلال العصور التاريخية وما تمخّض عن ذلك من مؤثرات وأسباب شكلت التربية، وكونت أهدافها ومحتواها وأثر ذلك حتى على الوقت الراهن[1].

[1]– أحمد علي الحاج: أصول التربية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 2013، ص72.

رابعا– دراسة تاريخ التربية في الجزائر وأهميته في فهم النظام التربوي الجزائري

إن التربية صيرورة مترابطة ومتشابكة، ولا يمكن فهم التربية إلاّ من خلال فهم حلقات هذه الصيرورة، وليس هنالك عملية أو قضية لها من الارتباط مع غيرها ما للتربية كنسق من علاقة مع غيرها من الأنساق الأخرى، وفهم التربية يتوقف على الإحاطة التامة فهما وتفسيرا لهذه القضايا والعمليات.

ومن هذا المنطلق فإن محاولتنا لفهم النظام التربوي في الجزائر وتشخيص واقعه وتجليات مظاهره التي يوجد عليها اليوم، سواء ما تعلق بصراع المصالح الذي يهيمن على الخطاب التربوي وفلسفة السياسة التربوية، أو حجم المشكلات التي تواجهها المدرسة الجزائرية كالعنف ومختلف أشكال الصراع داخل الفضاء المدرسي، أو تلك المشكلات البيداغوجية التي أصبحت اليوم تشكل صداعا للقائمين على التربية وترهن مستقبل الأمة بكاملها كارتفاع معدل الرسوب والتسرب من سنة لأخرى وغيرها من المشكلات، فإنه لا يمكن فهم هذه المشكلات ولا الإحاطة الكاملة بأسبابها إلا بالعودة إلى الجذور التي نبتت منها المدرسة الجزائرية أو التي يتخذ منها النظام التربوي في الجزائر منطلقا له في التفكير.

ففهمنا للنسق التربوي الجزائري وكيفية اشتغاله حتما يمر عبر دراسة المشهد الثقافي والوضعية التعليمية خلال الحقبة الاستعمارية، لأن الآثار التي عرفتها تلك الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر جراء سياسة التجهيل الممنهجة لأفراد المجتمع الجزائري وما نتج عنها من تفشي لظاهرة الأمية بين السكان الجزائريين بلغت حدود 97% عند استرجاع السيادة الوطنية من جهة، ومن جهة أخرى تلك السياسة التعليمية التي انتهجتها والتي هدفت من خلالها إلى تكوين نخبة جزائرية مستلبة الروح، ستشكل هذه الآثار والانعكاسات التي عرفتها الجزائر خلال الفترة الاستعمارية إحدى الأرضيات التي انطلق منها اشتغال النسق التربوي بعد استرجاع السيادة الوطنية، فافتقار الجزائر لمدرسة وطنية على شاكلة ما كان موجودا في تونس ومصر والمغرب جراء سياسة التجهيل المنتهجة، في مقابل وجود نخبة ذات ثقافة فرنسية وحيدة، سيجعل المدرسة الجزائرية تجد لها صعوبة في التخلص من الحبل السري الذي يربطها بالثقافة الفرنسية، ويجعل من المدرسة في الجزائر رهينة ثقافة واحدة هي الثقافة الفرنسية، وظهر ذلك جليا مع لجنة الخبير التربوي الفرنسي بيير كون سنة 1964 التي رسمت معالم مدرسة الاستقلال وعمق ارتباطها بفرنسا.

وكما أن دراسة السياسة الفرنسية تعتبر لازمة لفهم واقع النظام التربوي الجزائري فإن دراسة تجربة التعليم العربي الحر خاصة تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقدم لنا تفسيرا وفهما لذلك الصراع الذي كان حاصلا بين أنصار الفرنسية وامتيازاتها في الجزائر والمعربين أو الذي كانوا يلحون على التعريب الشامل.

ونفس الكلام يمكن أن يقال على مرحلة ما بعد استرجاع السيادة الوطنية، فإن الكثير من الاختيارات التربوية للسلطة الحاكمة آنذاك لا يمكن فهمها إلا من خلال آثار المرحلة السابقة، كما أن آثار وانعكاسات

هذه الاختيارات والتوجهات السياسية هي التي تقدم لنا اليوم تفسيرا عن كثير من المشاكل التي تواجهها المدرسة الجزائرية اليوم كمشاكل اكتظاظ الصفوف الدراسة والازدواجية اللغوية وغيرها.

وإن هذا المنهج في فهم حركة التربية وتطورها عمل به واشتغل عليه العديد من الباحثين بدءا من ابن خلدون الذي كان في كل مرة يستدعي الشواهد التاريخية في تفسيره لظواهر العمران البشري وكذلك فعل إميل دوركايم في مؤلفه تطور البيداغوجيا في فرنسا أين كان يعتمد على تاريخ التربية وتطور الأفكار والنظريات التربوية في مناقشة بيداغوجيا التعليم الثانوي الفرنسي.

وعليه يمكن القول أنه إذا أردنا أن نفهم نظامنا التربوي فهما عميقا أو أن نؤسس لنظام تربوي ملائم للمجتمع الجزائري ليس علينا إلاّ أن نفتش في تاريخ حركة التربية والتعليم لهذا الوطن.